

ولم تبلور العصور القديمة، في ميدان السيرة والسيرة الذاتية على السواء، إلا البداية الأولى لتخصيص الإنسان ووجوده، مما يعني أن أشكال التعبير السيرذاتي المتعلقة بوعي الفرد في حد ذاته، لم تكن قد ظهرت بعد. وسيلاحظ باختين، بناء عليه، ثلاث تعديلات خاصة كانت في صلب التحول الذي اكتسبه الجنس السيرذاتي في العصور الوسطى: التمثيل الهجائي الساخر للفرد نفسه، كنصوص هوراس الشعرية، وأويد وبروبيرس. وتتضمن هذه النصوص عنصرا باروديا للأشكال البطولية والعمومية. كما أن الخاص والحميمي يكتسي شكل السخرية والهزل. أما التعديل الثاني فيظهر من خلال رسائل سيسرون إلى أتيكوس، التي انتقلت فيها صورة الإنسان نحو الفضاءات المغلقة، شبه داخلية حميمة. وأما التعديل الثالث فيتعلق بالدور المتعاظم لأحداث الحياة الداخلية والشخصية، التي كان لها أثر كبير على وجود الفرد. (ص 291).

يتساءل جورج ماي في الصفحات الأخيرة من كتابه (السيرة الذاتية)⁽¹⁾ هل ستصبح السيرة الذاتية جنسا أدبيا؟ وهو سؤال الختام، لأن كل ما قام به جورج ماي هو تعقبه لظهور هذا الجنس، ولو بإشارات عابرة في بعض الأحيان، منذ القرن الثامن عشر، مع ذكر التحولات التي طرأت عليه، فضلا عن الأجناس المتقاربة التي تشترك معه أو لا تشترك في الاحتفاء بالحياة والمصائر الإنسانية. ولكن سؤاله يأخذ معنى آخر إذا ما نظرنا إليه من الزاوية المنهجية، أعني ما السيرة الذاتية في النهاية، وما هي الخصائص التي يمكن أن تقعدها كجنس أدبي مستقل، تميزا عن باقي الأجناس الأخرى؟.

يلاحظ جورج ماي أن السيرة الذاتية جنس حديث، وربما كانت أحداثه في أصل الخلاف الملحوظ بين الباحثين والمهتمين الأوربيين حول إيجاد تعريف للكتابات التي قد تدخل في معنى الجنس السيرذاتي. وتراه يؤكد بأن الاهتمام المتزايد بالكتابات الذاتية، ورسوخ تقاليدها الثقافية عبر الزمن، هو الذي يحمل القارئ عادة على القبول بالخصائص المكونة التي ساهمت في ظهورها وتطورها.

يفترض جورج ماي أن هناك فكرة مقبولة من طرف كثير من الباحثين مفادها أن السيرة الذاتية ظاهرة غربية خاصة بامتياز، غير أنه يشير إلى صعوبة الاتفاق حول زمن ظهورها استنادا إلى تاريخ معلوم. وسنجد أنه يجعل من بداية القرن الثامن عشر منطلقا لانتشار ملحوظ عرفته السيرة الذاتية في معظم اللغات الأوروبية، مع اعتبار ما ظهر منها خلال القرن السابع عشر، فضلا عن (اعترافات) القديس أوغستين التي ظهرت، فيما

1 - L'Autobiographie, P.U.F 1984, Paris.